آغا محمد سليم اختر*

حكاية مدرسة أوس

من المقرر المعروف لدى علماء الجغرافية أن البيئة تؤثر تاثيراً بالغاً فى نفسية أبنائها و تترك بصماتها واضحة لاتندثر ولا تنمحى بسهولة. و ان الظروف الجغرافية مع الاحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية تلعب دوراً هاماً فى تكوين شخصية الأمة و توجيه افكارها و سلوكها بنهج خاص، فتختلف أمة فى سيرتها و آرائها، من أمة أخرى، ومن المعلوم المؤكد ايضاً أن البيئة الغربية لها ملامح و أمارات تختلف تماماً من تلك التى تختص بالبيئة الشرقية، و خاصة البيئة العربية، و يبلغ هذا الاختلاف الى منتهاه اذا نصل الى البيئة العربية فى عصرها ما قبل الاسلام -

و اذا حاول عالم من العلماء أن يطبق الاصول و القواعد المستنبطة من الثقافة الغربية على تلك البيئة العربية العريقة، فربما يخطئ فى استنتاجه، أولا يصل الى نتائج علمية صحيحة و مثل ذلك حدث للدكتور طه حسين لما حاول—بعد أن درس و تعلم فى فرنسا و تأثر بالأدب الغربى و خاصة بالأدب الفرنسى والانجليزى—أن يلمس روح الأدب الفرنسى والا نجليزى فى الأدب العربى القديم، و يجعل الشعراء العرب القدماء جماعات و يفرقهم فرقاً و ألصق بكل جماعة منهم ملامح خاصة و خصائص معينة ليسمى كل جماعة منهم باسم ''مدرسة خاصة'' كما وجد مدارس فكرية متعددة فى الأدب الانجليزى -

و قد وجد الدكتور طه حسين فى آثار علمائنا القدامى أشياء ظنها تؤكد رأيه فاستنبط و استخرج واستنتج، ومن نتائجة التى استنتجها ''مدرسة أوس'' أو ''مدرسة أوسية'' ثم اتبعه فى ذلك عدد كثير من علماءنا المحدثين، حتى صارت كانها حقيقة علمية بحتة لا يمكن ردها ولا يجوز خلافها، ولكنا اذا تصفحنا كتب الادب العربى القديمة، وأمعنا النظر فى المصادر العربية الأصيلة، فربما لاحت لنا حقائق أصدق، و ظهرت لنا نتائج أعمق وأدق -

تخبرنا مصادر الآداب العربية أن أوس بن حجر كان من فحول الشعراء

---

* شعبة اللغة العربية الكلية الحكومية بفيصل آباد

و ان لم يتعرض لتحديد سنة ولادته ، فانه يذكر وفاته فى سنة (٦٢٠) م[١]

و قد أشار (أوس بن حجر) فى شعره الى (المنخل اليشكرى) الذى اتهمه النعمان بن المنذر أمير الحيرة بزوجته (المتجردة) فحبسه ثم انقطعت أخباره.[٢] قال:

فجئت ببيعى مولياً لا أزيده عليه بها حتى يؤوب المنخل[٣]

يبدو من هذا البيت أن أمر غياب المنخل أو قتله و غمض خبره كان اشتهر بين العرب حتى ضربوا به المثل[٤] و قد استخدم هذا المثل عدد من الشعراء فى شعرهم[٥].

و لعل (أوس بن حجر) هو أول من ضرب غياب (المنخل) مثلاً فأخذ عنه آخرون. و يتبين من هذا أن (أوس بن حجر) قد عاش بعد المنخل أعواماً كثيرة. و يذكر بعض المحدثين المهتمين بأخبار العرب قبل الاسلام "أن (اوساً) كان متقدماً فى الزمن عن النابغة الذبيانى".[٦]

وروى ابن رشيق أن (أوس بن حجر) قال يغرى النعمان بن المنذر ببنى حنيفة ، لأن شمر بن عمرو السحيمى قتل المنذر ، و هو حينئذ مع الحارث بن أبى شمر الغسانى، و قال ابن جنى : انما قتل ابن النعمان.

نبئت أن بنى حنيفة أدخلوا أبياتهم تامور قلب المنذر

و يروى "ان بنى سحيم"—فغزاهم النعمان و قتل فيهم و سبى ، و أحرق نخلهم. و يقال : انما أغرى بهم عمرو بن هند."[٧]

١- انظر : شعراء النصرانية القسم الرابع ص ٤٩٧

٢- انظر: الشعر والشعراء ١٦٦/١ والأغانى ٣٨٠/١١ (اخراج ابراهيم الأبيارى) و المفصل للدكتور جواد على ٥٩٢/٩ - ٥٩٣ ، و اسماء المغتالين لمحمد بن حبيب (ضمن نوادر المخطوطات) ٢٣٩/٢

٣- ديوان أوس بن حجر ص ٩٨

٤- انظر أسماء المغتالين ٢٣٩/٢ والمستقصى للزمخشرى ص ٥٨

٥- طبقات فحول الشعراء ١٨٥/١ والمعانى الكبير لابن قتيبة ١٢٦٥/٣ والأغانى (اخراج ابراهيم الأبيارى) ٨١٤٨/٢٣ و ديوان ذى الرمة بتحقيق د/عبدالقدوس أبى صالح ج ٣ ص ١٤٧٣ وانظر تاج العروس للزبيدى (نخل) و مجمع الأمثال للميدانى (اخراج أبى الفضل ابراهيم) ١٥٢/٣

٦- دائرة المعارف الاسلامية ٢٢٦/٥ (الشعب بالقاهرة)

٧- العمدة ٦٢/١ (اخراج محى الدين عبدالحميد)

هذا الذى ذكره ابن رشيق بصيغة التمريض ، هو المعروف.[١] و (عمرو بن هند) هذا قد تولى ملك (الحيرة) بعد قتل أبيه (المنذر بن ماء السماء). "وكان ملك (عمرو بن هند) ست عشرة سنة".[٢]

و يبدو أن (أوس بن حجر) لما حث عمرو بن هند على أن يثار لأبيه ، كان رجلا مكتمل الرجولة ، ولا قبل ذلك بما لا تقل عن ربع قرن.[٣]

يقول الدكتور نورى حمودى قيسى : "والمعروف (أن اوس بن حجر) شاعر جاهلى ، و هو أستاذ زهير بن أبى سلمى الذى لم يدرك الاسلام ، ولابد ان تكون المرحلة التى عاش فيها (أوس) قد سبقت الاسلام بما لا تقل عن مائة سنة بدليل قول تلميذه زهير :

سئمت تكاليف الحياة و من يعش ثمانين حولا ، لا أبا لك يسأم"[٤]

و ذكر غير واحد من الباحثين أن مولده كان بالبحرين.[٥] ولكن ليس من اليسير تحديد منازل القبائل العربية فى العصر الجاهلى بالدقة التامة. وأكثر ما يمكن من القول فى مولده على وجه التقريب ، اعتماداً على ما رواه البكرى[٦] عن منازل تميم ، أن (أوس بن حجر) ولد فى مضرب من مضارب (أسيد) التى كانت تنتقل بين اليمامة والهجر.

أما معتقد (أوس) فيقول فيه (كارلو نالينو) : و من الجدير بالذكر أنه ربما استعمل فى أبياته عبارات أقرب لدين النصارى منها لمذاهب الوثنيين : ثم ان (زهير

١- انظر : لسان العرب (نفس) ٦/٢٣٥ ، و دائرة المعارف الاسلامية ٥/٢٢٦

٢- النقائض ٢/٨٨٥

٣- انظر : المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام للدكتور جواد على ٣/٢٣٩ وما بعدها

٤- الشعر والتاريخ ص ٤٣

٥- تاريخ الأدب العربى - لكارل بروكلمان ١/١١٢ و المفصل للدكتور جواد على ٩/٤٦٨

٦- معجم ما استعجم ١/٨٨ ، وانظر ديوان أوس (٥٧-١١٧ ... الخ) فهناك اشارات الى أماكن باليمامة كانت ترتادها قبيلته. وانظر ايضاً معجم قبائل العرب- لعمر رضا كحالة ١/١٣٦

بن أبى سلمى) كان راوى شعره.''[1]

و عده (الأب لويس شيخو) من الشعراء النصارى.[2]

و يقول الدكتور جواد على : ''و يظهر من الشعر المنسوب اليه ، أنه كان على اتصال بالحضر والنصارى''[3]

و لعل ما جاء فى شعر أوس من ايمانه بالله و قدرته سبحانه و تعالى ، جعل هؤلاء العلماء يلجأون الى هذا القول والراى. يقول (أوس) :

ألم تر أن الله أنزل مزنة و عضر الظباء فى الكناس تقمع[4]

شرح ابن قتيبة هذا البيت فقال ''(تقمع):تطرد عنها القمعة، و هو ذباب أزرق يقول: خصه الله بهذه المزنة فى غير وقت مطر فى الحر والذباب لم يخف و لم يذهب.''[5]

فأوس بن حجر ، اذن ، يؤمن بأن الله سبحانه و تعالى رقيب حفيظ يقيه من الشرور التى تصادف الانسان و يحفظه من شماتة الأعداء ، يقول :

فان يهو أقوام ردائى فانما يقينى الاله ما وقى و أصادف[6]

و يمتدح بطاعة ربه ، و يذم الآخرين بعصيانهم ، و يشير الى شعور العاصين بمرارة هذا العصيان و شعوره بحلاوة الطاعة ، يقول :

أطعنا ربنا و عصاه قوم فذقنا طعم طاعتنا و ذاقوا[7]

و كذلك يذكر أوس تقوى الله تبارك و تعالى :

ألا تتقون الله اذا تعلفونها رضيخ النوى والعض حولا مجرما[8]

١- تاريخ الآداب العربية (من الجاهلية حتى عصر بنى أمية) ص ٨٤ - دارالمعارف بمصر.

٢- انظر : شعراء النصرانية (القسم الرابع) ص ٤٩٢ و ما بعدها

٣- المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ٤٦٥/٩

٤- ديوان أوس ص ٥٧ البيت : ١

٥- كتاب المعانى الكبير ٦٠٥/٢ - ٦٠٦

٦- ديوانه ص ٦٤ البيت : ١١

٧- ديوانه ص ٧٩ البيت : ١

٨- الديوان ص ١١٢ البيت : ٧

و الضمير فى (تعلفونها) يرجع الى غنمه التى سرقها قوم. فيقول لسارقيها : ردوها ولا تعلفوها ، ولو لا أنكم سرقتموها لأى شئى تعلفونها. و (الرضيخ) بالضاد و الخاء المعجمتين: المدقوق. و (العض) بضم العين المهملة و تشديد الضاد المعجمة : القت (الجوهرى) : علف أهل الأمصار مثل الكسب والنوى المرضوخ. و (المجرم) بالجيم على وزن المفعول : التام الكامل.

لعل هذه الابيات التى نلتمس فيها روح التوحيد ، جعلت هؤلاء العلماء يذكرون لأوس بن حجر أى اتصال بالنصارى أو جعلت بعضهم يضمه مع جماعة الشعراء النصارى. و لكن هذه الأحكام المرتجلة لا يرتضيها المنهج العلمى السليم. و هذه الأفكار التى توحى باعتقاد ألوهية الله جل شأنه و ربوبيته ، ربما لا يخلو منها شعر شاعر جاهلى ، و مع ذلك أنهم كانوا كما هو معروف عنهم ، على عقيدة و ثنية.

و أقحم (الأب لويس شيخو) زهيراً فى عداد النصارى ايضاً ، ولكن (بروكلمان) أنكر نصرانية زهير فقال : " و قد برز عنصر التهذيب والتعليم بقوة فى شعر زهير ولا سيما فى معالى العقاب والزهد حتى ظن بعض العلماء أنه خاضع لتأثير النصرانية واسع الانتشار قديماً فى جزيرة العرب ، بيد أنه لا يجوز من أجل ذلك عده نصرانياً."[1]

و يمكن لنا أن نقول مثل هذا القول فى ديانة (أوس بن حجر)، نعترف بأن بعض بطون تميم كانوا اعتنقوا النصرانية ، ولكن لم يرو أى نص يدل على أن (بنى أسيد) البطن الذى ينتمى اليه أوس كان تنصر.[2] ولم يرد كذلك فى شعر (أوس) ما يدل على أنه كان اعتنق النصرانية ، بل نجد فى بعض أبياته اشارة الى العقيدة الوثنية ، يقول :

و باللات والعزى و من دان دينها و بالله ، ان الله منهن أكبر[3]

و قد كانت جماعة من العرب لم تعبد الأصنام ، ولم تكن من اليهود ولا النصارى و كانت تزعم أنها على دين أبيهم ابراهيم (عليه و على نبينا التحية والسلام) ، وكان هؤلاء يسمون أنفسهم (الحنفاء).

يقول الشيخ الامام محمد عبده : ... والسبب فى التسمية والدعوى أن سلفهم كانوا على ملة ابراهيم حقيقة ، ثم طرأت عليهم الوثنية فأخذتهم عن عقيدتهم ، وألستهم أحكام ملتهم و أعمالها - نسوا بعضها بالمرة و خرجوا ببعض آخر عن أصله ..."[4]

و لعل بيت (أوس) الذى يقسم فيه باللات والعزى ثم يقسم بالله معترفاً بكبريائه، أوضح دليل لذالك ، فانه يؤمن بالله الاكبر ولكن ايمانه هذا تشوبه شوائب الوثنية.

١- تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٩٥/١

٢- انظر : "المعارف" لابن قتيبة ص ٦٢١ ، تاريخ اليعقوبى ٢٥٧/١

٣- ديوان أوس ص ٢٦ ، البيت : ١

٤- تفسير المنار للمرحوم السيد محمد رشيد رضا ٤٨٦/١ (دارالمعرفة بيروت)

اضف الى ذلك ما رواه محمد بن حبيب فى كتاب المنمق من قدوم (اوس بن حجر) مكة ـ و ان صحت الرواية فنزاه فيها يطوف بالبيت الحرام.[١]

و من ابرز السمات الشخصية والملامح النفسية التى يتميز بها (اوس) ، هى رجاحة العقل ورزانة الطبع. يظهر (اوس) فى شعره صاحب الحلم والوقار والأناة ، و تزين شخصيته الحنكة والخلق الكريم ، تأبى نفسه عن اقتراف الفواحش والفعال الدنيئة يقول :[٢]

على الية عتقت قديماً فليس لها و ان طلبت مرام[٣]
بأن الغدر قد علمت معد على و جارتى منى حرام
وليس بطارق الجارات منى ذباب لا ينم ولا ينام
ولست بأطلس الثوبين يصبى حليلته اذا هجع النيام[٤]
يقرع للرجال اذا أتوه و للنسوان ان جئن السلام
و لست بخابىء أبدا طعاماً حذار غد ، لكل غد طعام

هو عفيف ، تنفر نفسه من الخبيث ولا تعاطيه ، و يعتقد (أوس) أن هذه العفة و طهارة النفس عطاء من الله تعالى ، فقد حفظه الله من الرذائل ، و طهر ماله و طعامه من دنس الحرام ، يقول :

تركت الخبيث لم أشارك و لم أدق ولكن أعف الله مالى و مطعمى[٥]

١- أنظر : ''المنمق فى أخبار قريش'' ص ٤٤٤ (ط. دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد دكن الهند)

٢- ديوانه ص ١١٥ البيت : ١-٦

٣- (الالية) : اليمين. (عتقت) : أى قدمت و وجبت ، يريد ''لزمتنى وقيل : أى ليس لها حيلة و ان طلبت'' (لسان العرب مادة : عتق)

٤- قال البكرى : ''قوله (بأطلس الثوبين): يعنى أن الطلسة تلتبس بالظلام فتختفى و لو كان أبيض الثياب لنمت عليه. و (الطلسة) : كدرة فى غبرة ، والذئب أطلس . . . وقيل : انه أراد بالطلسة هنا دنس الثياب الذى هو كناية عن اقتراف الفواحش . . .'' (سمط اللالى : ١/٩٠)

٥- ديوانه ص ١٢٢ البيت : ٣٢

و صفة العفة هذه و طهارة النفس و ابائها عن الخبث والدنس، من الصفات اللازمة التى تتحلى بها شخصية (أوس). و مهما يكن من أمر فهذه الصفات لا تفارقه حتى فى حالة شدة الغضب ، فاذا أصابه شئ من الأعداء أو هو غضب على امرىء و هجاه فلا يسرف ولا يفحش ولا يتكلم بكلام بذىء.

أقول فأما المنكرات فأتقى و أما الشذا عنى الملم فأشذب[1]

و مع ذلك هو عارف بمراتب الناس فينزلهم المنازل التى يستحقونها :

فعندى قروض الخير و الشر كله فبؤسى لدى بؤسى و نعمى لأنعم[2]

و اختياره هذا لا يكون عشوائيا ، بل رجاحة عقله و ثقابة فهمه تهديه الى أمر واضح بين لا غبار عليه :

تخيرت أمراً ذا سواعد انه أعف و أدنى للرشاد و اجمل[3]

و هو شجاع ، كريم النفس ، لا يذل نفسه ، ولا يدفع عن حقه ولا يمنع حتى يحوج الى أن يشكو فيستعين بغيره،:

و ما أنا ممن يستنيح بشجوه يمد له غرباً جذور و جدول[4]

و كان (أوس) يخوض المعارك مع قبيلته ولا يتأخر ، بل كان أحد الأبطال الذين يرفعون علماً فى الحرب للدلالة على مكانهم ، فهو البطل المشهور الذى يدل على مكانه فى ساحة الحرب ، و كانت معد تذرت أن تفاجأه و تقارعه فى الحرب فهو بطل الأبطال والشجاع ذوالقوة و المنزلة ، يتجنبه الحليم حيث يعرف شدة بطشه و قوته ، فينهاه حلمه عن الخوض فى المعركة معه ، و أما الجاهل فيزجره هو أشد

١- ديوانه ص : ٧ البيت : ١٢. (الشذا) الأذى والشر (أشذب) : أرد و أقطع

٢- ديوانه ص : ١٢١ البيت : ٢٢ يريد: أناقض الناس بأفعالهم

٣- ديوانه ، ص : ٩٥ البيت : ١١. (ذو سواعد) : أى ذو وجوه و مخارج

٤ ديوانه ، ص : ٩٤ البيت : ٥ ، ''استناح الرجل ، كناح : بكى حتى استبكى غيره'' (لسان العرب : نوح) و (الغرب) : الدمع حين يخرج من العين أو هو مسيله. و معنى البيت : ''لست أرضى أن أدفع عن حقى و أمنع حتى أحوج الى أن أشكو فاستعين بغيرى . . .'' (لسان العرب : نوح).

الزجر. يقول[١] :

رأتنى معد معلماً فتناذرت مبادهتى ، أمشى برأية معلم
فتنهى ذوى الأحلام عنى حلومهم و أرفع صوتى للنعام المصلم

و أوضح ما يكون فى الدلالة على وفاء (أوس) و كرامة خلقه ، تلك القصائد الأوابد التى - أخلدت اسم (فضالة بن كلاة)[٢] سيد بنى أسد و اسم بنته (حليمة) على صفحات الدهر - تملأ ثلث ديوان (أوس) والتى تنبثق من عاطفة صادقة أو شعور خالص. و قد قيلت اكثرها بعد وفاة (فضالة بن كلاة) ، فاذن لم يكن هناك أى دافع مادى يثيره على انشاد تلك القصائد إلا نفسيته التى كانت على صلة وثيقة (بفضالة).

ليس لدينا أخبار وافية عن حياة (أوس) فى أسرته نستبين منها مكانته فى أسرته ، و مكانة افراد أسرته ، و صلاته بهم و نوعية هذه الصلات ، يبدو من شعر (أوس) انه كان يتمتع بمنزلة رفيعة فى قبيلته، و كان نجيب الطرفين ، كان أبوه شجاعاً جواداكريم الخلق ، و كذلك كان أخواله و اعمامه شرفاء كراماً. يقول (أوس) مفتخراً :

متى تبغ عزى فى تميم و منصبى تجد لى خالا غير مخز ولا عم
تجدنى من أشرافهم و خيارهم حفيظاً على عوراتهم غير مجزم[٣]

١- ديوانه ص ١٣٢ - ١٣٣ البيت : ٣٤ - ٣٥

(المعلم) : الذى رفع علما فى الحرب ليدل على مكانه. (فتناذرت مبادهتى) : جعلت مفاجأتى و مقارعتى فى الحرب نذراً بينها.

(الأحلام) : العقول. خص النعام بالذكر لنفاره و شروده و حمقه فضربهم مثلاً للجهالة.

(المصلم) : القصير الأذنين. قال ابن قتيبة : "يقول : الحليم يكفينيه حلمه و الجاهل أز جره أشد الزجر (كتاب المعانى الكبير)

٢- انظر خبر اتصال أوس بن حجر بفضالة بن كلاة فى الأغانى (اخراج ابراهيم الأبيارى) ٣٨٥٨/١١ و شرح أدب الكاتب للجواليقى ص ٣٢٨ - ٣٢٩ : وأورد الزمخشرى هذه القصة باختصار انظر : ربيع الأبرار و نصوص الأخبار ٣٢٣/٤ (مطبعة العانى- بغداد)

٣- ديوان أوس بن حجر ص ١٢٤ البيت : ٤٤-٤٥

و يظهر من شعره ايضاً أنه كان لأعمامه أبناء ، و ربما كان بينهم أو بين بعضهم و بين (أوس بن حجر) أمور. و كان منهم من كان يتعدى فى بعض الأمور فيعتبه أو يصدر من بعضهم الجهل فيتجاوز عنه (أوس) و مع ذلك اذا أعضل عندهم أمر أو حدث حادث أو نزلت نائبة جاءوه يستشيرونه ، وكان (أوس) عاقلاً حكيماً مجرباً حليماً ، عارفاً بمعضلات الأمور و حلها فيميز لهم الصحيح من السقيم ، و السليم من الزائف ، و يبين لهم الرشد من الغى.

ألا أعتب العم ان كان ظالماً و أغفر عنه الجهل ان كان جا هلاً
و ان قال ماذا ترى يستشيرنى يجدنى ابن عم مخلط الأمر مزيلا[1]

و ربما أراد (بابن العم) بعض أبناء قبيلته و هذا معروف عندهم ، يطلقون هذا اللفظ على أفراد القبيلة الواحدة الذين يتساوون فى العمر غالباً.

و قد ورد فى بيت (أوس) ذكر (ابن العم) مع اسمه ، و يبدو أنه كان ابن عمه نعلاً ، و كان ذا صلة بأوس) :

أنالى ابن عبدالله قرط أخصه و كان ابن عم نصحه لى بارد[2]

تلك البيئة الجاهلية التى لم يكن فيها قانون يوجب على الناس احترامه ، ولم

١- ديوانه ص ٨٢ البيت ٣-٤

و فى (الأشباه والنظائر) للخالديين "ولا أعتب" و رواية الطبرى فى تفسيره (١/٣٠٢) "فلا أعتب". و فى عيون الأخبار لابن قتيبة (١/٣٤) "و قد أعتب" (انظر هامش الديوان ص ٨٢)

قال السيوطى فى شرح البيت الأول : "و قوله : (لا أعتب) معناه : ألا انى أنا أعتب ، ولم يرد الاستفهام" (شرح شواهد المغنى ١/٤٠٠)

و اننا ان أخذنا برواية (الأشباه والنظائر) و (الطبرى) فليس هناك استفهام. و تظهر هذه الرواية أنسب الى سياق الكلام.

و قوله : (مخلط الأمر مزيلا) : قال السيوطى : "أى أخالط بأمرى فى موضع المخالطة و أزائل فى موضع المزايلة : أى أخلط و أميز ما ينبغى." (شرح شواهد المغنى ١/٤٠١)

٢- ديوان أوس بن حجر ص ٢٣ البيت : ١ (بارد) هنا بمعنى : واجب ، يقال : "برد عليه حق : وجب ولزم (لسان العرب : برد)

يكن دين يلزمهم اتباعه ، فى تلك البيئة عاش هذا الشاعر الكريم النبيل الذى يلزم نفسه نصح من يستشيره و يخلص فى نصحه و مشورته.

هذه نبذة من أخبار ذكرتها قبل الدخول فى صلب الموضوع ليكون قارئ هذه العجالة على معرفة بأوس بن حجر. و أما فكرة المدرسة الاوسية فالذين رأوا بهذا الرأى من العلماء المحدثين قد وجدوا فى المصادر العربية القديمة أشياء استقوا منها فكرتهم و اقاموا عليها بنيان رأيهم. منذ ذلك الوقت الذى قال فيه الجاحظ : ''وكل شىء للعرب فانما هو بديهة و ارتجال و كأنه الهام ، و ليست هناك معاناة ولا مكابدة، ولا اجالة فكر ولا استعانة ، و انما هو أن يصرف و همه الى الكلام، و الى رجز يوم الخصام ، أو حين يمتح على رأس بئر ، أو يحدو ببعير أو عند المقارعة أو المناقلة أو عند صراع أو فى حرب ، فما هو الا أن يصرف و همه الى جملة المذهب ، و الى العمود الذى اليه يقصد ، فتأتيه المعانى أرسالا[١] و تنثال عليه الألفاظ انثيالا.''[٢]

منذ ذلك الوقت ما زال العلماء - القدامى و المحدثون - يتعاطون قوله هذا و يرددونه فى كتبهم و لكننا نرى الجاحظ يناقض نفسه رأيه هذا حيث يقول : ''و من شعراء العرب من كان يدع القصيدة عنده حولاً كريتاً و زمناً طويلاً ، يردد فيها نظره و يجيل فيها عقله ، و يقلب فيها رأيه اتهاماً لعقله و تتبعاً على نفسه ، فيجعل عقله زماماً على رأيه ورأيه عياراً على شعره، اشفاقاً على أدبه، و احرازاً لما خوله الله تعالى من نعمته. وكانوا يسمون تلك القصائد:الحوليات و المقلدات و المنقحات و المحكمات ليصير قائلها فحلاً خنديداً و شاعراً مفلقاً.''[٣]

و ان كان قوله الثانى صحيحاً عنده فلما ذا قال ماقال عن بديهتهم و ارتجالهم يقول الدكتور شوقى ضيف : ''فالشعر الجاهلى ليس تعبيراً فنياً حراً ، بل هو تعبير فنى مقيد ، ليس تعبير الطبيعة و الطبع ، بل هو تعبير التكلف و الصنعة. أما الفكرة التى تذهب عندنا الى تقسيم الشعراء الى أصحاب طبع و أصحاب صنعة والتى نرى امتدادها فى العصر الحديث فأكبر الظن أنها فى حاجة الى شىء من التصحيح ، فان أقدم آثار الشعر العربى و نماذجه لا تؤيد هذا التقسيم الذى لا يتفقه و طبيعة الشعر العربى و حقائقه ، فكله هو مصنوع فيه أثر التكلف و الصنعة ، و لعل الجاحظ أول من أذاع هذه الفكرة و دعا اليها حين كان يعارض الشعوبية ''فى بيانه'' فادعى عليهم أنهم

١- أرسالا : أفواجا ، جمع رسل بالتحريك

٢- البيان و التبيين (اخراج عبدالسلام محمد هارون) ٣/٢٨

٣- البيان و التبيين ١/٩

يقولون الشعر عن صناعة ، أما العرب فيقولونه عن طبع و سجية"[١]

ثم نقل الدكتور شوقي ضيف قول الجاحظ الأول و علق عليه بقوله : و ليس من شك في أن الجاحظ بالغ في وصف الموهبة العربية و الطبع العربي ليرد على الشعوبية ، فاذا العرب يقولون بديهة و ارتجالا على خلاف غيرهم من الشعوب ، فانهم يقولون متكلفين ، و أكبر الظن أنه لم يكن جاداً حين ذهب هذا المذهب ، انما كان بصدد أن يفضل العرب على غير العرب ، ولو ترك نفسه على طبيعتها في البحث و التحقيق لرأيناه يثبت للعرب صعوبة في القول و بخاصة في صنع الشعر."[٢]

و يعود الجاحظ في موضع آخر من البيان فيقول : "و قال الاصمعي : زهير بن أبي سلمى والحطيئة و أشباههما عبيدالشعر ، و كذلك كل من جود في جميع شعره ، و وقف عند كل بيت قاله ، و أعاد فيه النظر حتى يخرج أبيات القصيدة كلها مستوية في الجودة ، و كان يقال : لولا ان الشعر قد كان استعبدهم و استفرغ مجهودهم حتى أدخلهم في باب التكلف و أصحاب الصنعة و من يلتمس قهر الكلام و اغتصاب الألفاظ : لذهبوا مذهب المطبوعين الذين تأتيهم المعاني سهواً و رهواً ، و تنثال عليهم الألفاظ انثيالاً."[٣]

ان الجاحظ كان نسب البديهة و الارتجال في قوله الاول الى العرب كلهم ، و رأيناه يحدد الآن هاتين الصفتين بالذين يسميهم مطبوعين. و أدما الطبقة الأخرى فهي طبقة المتكلفين و سماهم الأصمعي "عبيد الشعر". و لعل قول الجاحظ هذا ، هوالأساس الذي بنى عليه ابن قتيبة رأيه في تقسيم الشعراء فقال : و من الشعراء المتكلف و المطبوع[٤] ، فالمتكلف هو الذي قوم شعره بالثقاف و نقحه بطول التفتيش ، و أعاد فيه النظر بعد النظر كزهيرو الحطيئة. و كان الأصمعي يقول : زهير و الحطيئة و أشباههما من الشعراء عبيد الشعر ، لأنهم نقحوه و لم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين. و كان الحطيئة يقول : خير الشعر الحولي المنقح المحكك. و كان زهير يسمي كبر قصائده الحوليات."[٥]

١- الفن و مذاهبه في الشعر العربي ص ٢٠ (دارالمعارف بمصر).
٢- المصدر السابق نفسه
٣- البيان والتبيين ١٣/٢
٤- قال الأستاذ المرحوم أحمد محمد شاكر في هامش "الشعر و الشعراء (٧٧/١) : "هذا الكلام كانه منقول بنصه أو معناه في البيان والتبيين للجاحظ ٢١/٢-٢٥"
٥- الشعر و الشعراء (بتحقيق الأستاذ. أحمد محمد شاكر) ٧٧/١-٧٨

يعلق الدكتور شوقي ضيف على تقسيم ابن قتيبة هذا للشعراء و يقول : " و هذا التقسيم من حيث هو صحيح ، ولكن ينبغي أن نتلقاه بشيء من الحذر ، فأن هؤلاء المطبوعين لم يكونوا يلغون التكلف الغاء ، كما أن هؤلاء المتكلفين لم يكونو يلغون الطبع الغاء. ولذلك كنانرى أن نعمم التكلف في الشعر القديم و نجعله على درجات يبلغ أعلاه عند زهيرو أصحابه الذين كانوا يعملون شعرهم عملا. و ياخذونه بالتفكير الدقيق ، و البحث و التحقيق."[١] و كأن الدكتور شوقي ضيف لا يتفق مع هذا الرأى بشكله العام ، ولكنه يقبل هذا الى حد زهير بن أبي سلمى و أصحابه. و اذا كان للدكتور شوقي ضيف حذراً في قبوله ، فقد ذهب أكثر العلماء المحدثين ينقلون هذا التقسيم بدون أي تعليق منهم عليه. يقول الأستاذ محمد حسن درويش : "و كان أسلوبهم في نظم الشعر أن يرتجلوه ارتجالا فتأتيهم ألفاظه عفواً و معانيه رهوا ، كما وقع للحارث بن حلزة في معلقته بين يدى عمرو بن هند ملك الحيرة ، وكذلك معلقة عمرو بن كلثوم."[٢]

و قال تحت عنوان "عبيد الشعر" أول من تردى في قرض الشعر لاحكامه و تأنى في نظمه لاتقانه فهذب و أفرط في تجويده و تنقيته و تفانى في خدمته ، و وقف عليه نفسه ينشده في المعاقل العامة و المواقف العظام ، زهير في حولياته ، و النابغة في اعتذلرياته ، و سمي هؤلاء عبيد الشعر"[٣]

و قد رأينا فيما سبق من النصوص أنها تنسب الصنعة و التجويد في الشعر الى زهير و النابغة و الحطيئة ، ولكن ابن رشيق وسع هذا المجال فشمل أوس بن حجر و طفيل الغنوى فيهم. وصف صنعة زهير في تأليف شعره فقال أنه كان : "ينظر في شعره فينفي الردىء و يبقى الجيد. وقد تبع في ذلك أستاذين هما : أوس بن حجر و طفيل الغنوى."[٤] و قال في موضع آخر : "و كان الاصمعي يقول : زهير و النابغة من عبيد الشعر ، يريد أنهما يتكلفان اصلاحه ، و يشغلان به حواسهما و خواطرهما في التنقيح و في التثقيف و التحكيك ، و من أصحابهما طفيل الغنوى و قد قيل : ان زهيراً روى له ، و كان (أى طفيل الغنوى) يسمى "محبراً لحسن شعره."[٥]

١- الفن و مذاهبه في الشعر العربي : ص ٢١
٢- تاريخ الأدب العربي في الجاهلية و صدر الاسلام ص ١٣٨
٣- نفس المصدر
٤- العمدة ١/١٣٢
٥- العمدة ١/١٣٣

لعل كارل بروكلمان استنبط من هذه النصوص حيث قال : ''وقيل ان زهيرا كان راوية أوس بن حجر زوج أمه ، و كان أوس راوية طفيل الغنوى و تلميذه ، وروى عن زهير ، كعب ، و عن كعب روى الحطيئة و جميل و كثير.''[١] وهى أساس رأى الدكتور يوسف خليف حيث جعل طفيل الغنوى أستاذا لمدرسة الصنعة يقول : ''و راحت القصيدة الجاهلية تأخذ طريقها بعد ذلك نحو تطور طبيعى لم يكن منه بد ، و نستطيع أن نلاحظ أن هذه القصيدة مرت بمرحلتين فنيتين متميزتين : مرحلة النضج الطبيعى التى يمثلها أقوى تمثيل امرؤالقيس و طرفة والمرقشان و عبيد بن الأبرص و علقمة بن عبدة التميمى ، مرحلة النضج الصناعى التى بدأت مع طفيل الغنوى و أوس بن حجر ، و بلغت ذروتها عند زهير بن أبى سلمى ، والتى يمثلها مع زهير النابغة و عنترة ولبيد.''[٢]

و يقول عن هذه المدرسة (مدرسة الصنعة) : لقد استطاع شعراء هذه المدرسة أن يغيروا من بحرى النهر الذى كان يتدفق فيه الشعر الجاهلى الى بحرى جديد يقف فيه الشاعر أمام عمله الفنى كما يقف الصانع أمام صنعته يجودها و يهذبها و يعيد النظر فيها مرة بعد مرة حتى تستقيم له على الصورة التى يريدها . . .

و الرأى الشائع بين الباحثين أن هذه المدرسة الفنية بدأت بأوس بن حجر ، شاعر تميم الكبير الذى كان معاصراً للنابغة الذبيانى ، فكلاهما من شعراء البلاط الحميرى أيام النعمان ابن المنذر ، ولكن الحقيقة التى تؤكدها الروايات العربية القديمة هى أن هذه المدرسة بدأت من قبل ذلك مع طفيل الغنوى ، شاعر قيس الكبير و هو شاعر قديم يصفه أبو الفرج بأنه كان أكبر من النابغة. و معنى هذا أنه أكبر من أوس و أقدم منه ، و كان طفيل أستاذا لأوس و كانوا يلقبونه ''المحبر'' لما لاحظوا على شعره من ضروب التنميق و التجويد و الصناعة. و كان أوس من بعده أرسى كثيراً من تقاليدها الفنية المميزة لها .و كان طفيل و أوس كلاهما أستاذين للشاعر الكبير زهير بن أبى سلمى الذى يمثل - بحق - الذروة الفنية التى وصل اليها فن هذه المدرسة فى العصر الجاهلى . . .

و أهم ما يلفت النظر فى العمل الفنى عند شعراء هذه المدرسة أنه كان عملاً تظهر عليه آثار العناية و الجهد و التعب و نضح الجبين التى يبذلها الشاعر فى سبيله. فالشاعر من هذه المدرسة ينظم قصيدته ثم يعيد النظر فيها ليهذبها و يجودها

١- تاريخ الأدب العربى ١/٩٥
٢- دراسات فى الشعر الجاهلى ص ٧٣

و يحذف مالا يرضى عنه ذوقه ، مالا يستقيم مع مذهبه الفنى ، و هو من أجل ذلك ، لا يتسرع ولا يتعجل و انما يلتزم الأناة الشديدة التى تحققه له كل مقومات مذهبه الفنى و عناصره. و قديماً قالوا : ان زهيراً كان يفرغ للقصيدة من شعره حولاً كاملاً يظل مشغولاً بها ، و انه لذلك كان يسمى كبار قصائده الحوليات.»[١]

ان تقسيم الدكتور الفاضل يوسف خليف حيث جعل مدرستين و جعل امرألقيس أستاذا لاحداهما و طفيل الغنوى أستاذاً للثانية ، خاضع للمناقشة من اوجه عديدة ، منها : أن امرأ القيس قد اعترف بنفسه أنه يحتذى فى فن الشعر بالذين سبقوه ، قال :

عوجا على الطلل المحيل لعلنا نبكى الديار كما بكى ابن خدام[٢]

و ان لم يصل الينا من شعر (ابن خدام) شيء ولكن القول ببداية هذه المدرسة على يدى امرىء القيس ثم بلوغها الى ذروتها على يدى علقمة بن عبدة ، مخالف للحقيقة. و أما قوله : ان شعراء مدرسة الصنعة - (و عده) من شعرائها طفيل الغنوى و أوس بن حجر و زهير بن أبى سلمى—كانت آثار العناية والجهد والتعب تظهر على عملهم الفنى فى حين أن المدرسة الأخرى (و شعراؤها عنده امرؤالقيس ، و طرفة ، والمرقشان - و عبيد بن الأبرص ، و علقمة بن عبدة التميمى) فشعراؤها يمارسون عملهم الفنى من غير تكلف أو صنع ، و من دون عناء أوجهد—فقد سبقه الدكتور شوقى ضيف فى الرد على من يرى بمثل هذا الراى.

اننا نجد الدكتور يوسف خليف يصف شعر الطبع بقوله : «و من هنا كان الشعر فى هذه المرحلة عفو يا طبيعياً ، قريب المتناول ، لانرى فيه أثرا للتكلف أو المعاناة ، يمد الشاعر خياله الى ما حوله من مظاهر الطبيعة فيستمد صوره و أخيلته منها ، ثم يصوغها فى شعره صياغة سهلة قريبة ، لا يتكلف فيها ولا يتصنع. . .»[٣]

و يحسن بنا أن ننقل هنا رأى الدكتور شوقى ضيف فى هذا الموضوع ، يقول : «أكبر الظن أننا نجدد حين نرفض الطبع فى الشعر ، و أن يقسم على أساسه . . . كل نموذج فنى هو عمل متعدد الصفات قد شقى صاحبه فى اخراجه ، و بذل فيه كل ما يستطيع من جهد ، و نحن نصطلح على تسمية هذا الجهد فى الشعر—مهما يكن ضعيفا—باسم الصنعة و قد وجدت هذه الصنعة أو وجد هذا الجهد فى نماذج الشعر الجاهلى بحيث يمكن أن نقول : ان الصنعة أول مذهب يقابلنا فى الشعر العربى ، فهى توجد

١- دراسات فى الشعر الجاهلى ص ٨٤-٨٥

٢- ديوان امرىء القيس (اخراج حسن السندوبى) ص ٢٠٠

٣- دراسات فى الشعر الجاهلى ص ٧٣

فى جميع نماذجه القديمة ، و ان كانت تتخذ مشكلا بسيطاً عند بعض الشعراء ، بينما تتعقد تعقداً شديداً عند آخرين ممن يريدون أن يستوعب فنهم مقدرات واسعة من الحذق والمهارة.

و من الخطأ أن نظن—كما يظن كثير من الناس—أن الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى كانت ساذجة بسيطة ، فقد كانت معقدة ملتوية ، شديدة الالتواء ، و لم تكن على هذا النحو من اليسر و السهولة الذى يجعل الشعراء يصدر عنهم شعرهم صدور الفطرة و السليقة كما يصدر الضوء عن الشمس والشذى عن الزهرة. بل كانوا يتكلفون فى شعرهم فنوناً من التكلف ، اذا كانوا عمالا صناعا يعملون شعرهم عملا و يصنعون صناعة و يتبعون فيه أنفسهم تعبا شديداً.[١]

و ان كان الدكتور شوقى ضيف يرفض رأى الذين يذهبون الى أن من الشعراء الجاهليين من كان يصوغ شعره صياغة سهلة قريبة ، لا يتكلف ولا يتصنع ، فانه مع ذلك يعتقد بمدرسة الصنعة و يجعل زهيراً أستاذ هذه المدرسة.[٢]

أما د/طه حسين فجعل (أوساً) أستاذ هذه المدرسة معتمداً :

اولاً : على تلك الأخبار التى تشير الى أن زهيرا كان راويته و ربيبه.[٣]

و ثانياً : على تلك المميزات المشتركة بين شعر أوس و تلميذيه : زهير والنابغة (حسب رأيه)

مع أنه يعترف بعدة فروق بين شعره و بين شعر تلميذيه[٤] وهو يصف فنه الشعرى بأن «ملكة الخيال عند أوس كانت شديدة الاتصال بحسه المادى» قليلة الاستدلال عند هذا الحس اليها الى شيء من التجويد والتصفية والتنقيح ثم التأليف ، إنما كانت تتخذ الحواس نفسها وسيلة الى هذا التاليف و من هذا كان الوصف فى شعر أوس، كما قدمنا، حسياً مادياً ، و كان أشبه بالتصوير منه بأى شيء آخر كان حكاية صادقة.»[٥]

ولكننا نراه يستدرك ما قاله من قبل ، فيقول:«ولا ينبغى أن يخدعك هذا كله ، فتظن أن حواس صاحبنا كانت أدوات حاكية تحس الطبيعة فتنقلها و تصورها كما هو شأن أداة التصوير الشمسى ، أو شان «الفتوغراف» و انما كان أوس قوى الحس ،

١- الفن و مذاهبه فى الشعر العربى ص ٢٢

٢- المرجع السابق ص ٣٤ ٣٥

٣- انظر «فى الأدب الجاهلى» (ط . دارالمعارف بمصر) ص : ٢٦٨ - ٢٦٩

٤- انظر المرجع السابق ص ٢٧٠

٥- فى الأدب الجاهلى ص ٢٧١

شديد اتصال الخيال بالحواس شديد الاعتماد على حواسه فيما يؤلف من الصور الشعرية ، ولكنه—وهنا ميزة أخرى له و تلاميذه—كان يؤلف هذه الصورة تأليفاً ، و يعمل فى هذا التأليف و يجد مشقة و عناء ، فهو اذن يمتاز بميزتين :

احداهما : أن خياله كان ماديا شديد التأثر بالحس

والثانية : أنه كان فنانا يتخذ الشعر حرفة و صناعة و فنا يدرس و يتعلم و ينشئه صاحبه انشاء و يفكر فيه تفكيراً . و يقضى فى انشائه و التفكير فيه الوقت غير القصير.

لم يكن الشعر اذن ، يفيض من أوس كما يفيض الماء من الينبوع الغزير ، وكما تعودنا أن نقدر صدور الشعر من أهل البادية و انما كان أوس يعمل شعره عملا و ينشئه انشاء.[1]

و كأن الدكتور طه حسين فى قوله : «و كما تعودنا أن نقدر صدور الشعر من أهل البادية . . . يشير—و ان لم يصرح به—الى وجود شعراء البادية الذين ينبعث الشعر من داخلهم انبعاثاً و انهم لا يتكلفون فى صنع الشعر ولا يجدون فى تأليفه مشقة و عناء. و قد سبق الرد على هذا الرأى. و أما أوس ، فكان—كما يراه الدكتور طه حسين—يعمد الى صنع الشعر و يجد فى تأليفه جهدا و مشقة ، ثم انه كان يتخذه حرفة و صناعة.

منذ ظهور آراء الدكتور طه حسين هذه ، جعل الناس يرددونها ، و صارت مدرسة أوس حقيقة لا يمكن ردها ، و أصبحت آراؤه أصولا مسلمة حتى ذهب بعض العلماء المحدثين الى أن أوساً قصد الى التكسب بالشعر[2] و لعل الذى جعله يذهب الى هذا الرأى قول د/ طه حسين : «انه كان فنانا يتخذ الشعر حرفة و صناعة ، يدرس و يتعلم. و ظاهر أن الدكتور طه حسين لم يرد بقوله هذا المعنى.

و يتبين مما سبق أن العلماء المحدثين قد افترقوا الى ثلاثة آراء :

الأول : ان أستاذ مدرسة الصنعة هو طفيل الغنوى ، و ذهب اليه الدكتور يوسف خليف.

الثانى : جعل الدكتور طه حسين أوساً أستاذ هذه المدرسة ، واتبعه فى ذلك عدد كبير من العلماء المحدثين.

١- فى الأدب الجاهلى ص ٢٧١

٢- انظر : «شعر الطبيعة فى الأدب العربى للدكتور سيد نوفل ص ٩٠-٩١ (دارالمعارف بمصر)

الثالث : قد ذهب أكثر العلماء المحدثين أن أستاذ هذه المدرسة هو زهير بن أبى سلمى و أكد الدكتور شوقى ضيف هذا الرأى ، و قال : «و اذن فنحن أمام مدرسة فى الشعر أستاذها زهير و تلامذتها جماعة ، تارة يكونون من أهل بيته و تارة لا يكونون.»[١] وكذلك فعل الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجى و أستاذنا الفاضل الدكتور صلاح الدين محمد عبدالتواب عندالحديث عن مدرسة «عبيد الشعر» ولم يذكرا أوساً فى هذه المدرسة قط.[٢]

و بتعمق النظر فيما سبق يظهر أن الذين يرون أوساً أستاذ مدرسة الصنعة يبنون رأيهم على أساس الامور التالية :

* ان زهيرا كان راوية أوس و ربيبه
* انه كان يعمد الى صنعة الشعر و يجد فى تأليفه مشقة و عناء.
* ان صوره مادية حسية.
* و يرى بعضهم أن أوسا قصد الى التكسب بالشعر فلذالك كان يعمد الى التجويد فى الشعر.

و أما قولهم ان زهيراً كان راوية أوس فتأثر بشعره كثيراً. فان كان زهيراً قد تأثر بشعر أوس ، فكان قد تأثر بشاعرين آخرين أكثر ، و هما : طفيل الغنوى و بشامة بن الغدير أما بشامة فقد روى أبو الفرج الأصبهانى عن ابن الكلبى عن أبيه ، قال : و كان بشامة بن الغدير خال زهير بن أبى سلمى ، و كان زهير منقطعا اليه و كان معجباً بشعره.»[٣]

وروى ابن سلام عن أبى عبيدة ، قال : ان بشامة بن الغدير كان كثير المال . . . فلما حضره الموت ، و لم يكن له ولد ، قسم ماله بين اخوته و بنى أخيه و أقاربه ، فقال له زهير ابن أبى سلمى—و هو ابن اخته : ما ذا قسمت لى يا خالاه ؟ قال : افضل ذلك كله. قال : ماهو ؟ قال : شعرى.

فيز عم من يزعم ان زهيراً جاءه الشعر من قبل بشامة بن الغدير»[٤]

و اما طفيل الغنوى ، فقد ذكر ابن رشيق—كما سبق—أن زهيراً روى له.[٥]

١- الفن و مذاهبه فى الشعر العربى ص ٢٥

٢- انظر : «الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى و صدر الاسلام» ص ١٨٤ وما بعدها.

٣- الأغانى (اخراج ابراهيم الأبيارى) ١٠/٣٧٧٦.

٤ - طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحى (بتحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر) ٢/٧١٨-٧١٩

٥- انظر «العمدة» لابن رشيق ١/١٣٣

و اذن فان زهيراً لم يتأثر بشعر أوس فقط ، و انما تأثر بشعر خاله بشامة بن الغدير و شعر طفيل الغنوى ، و كان أول الذكر أشد تأثيراً فى شعر زهير كما سبق انفاً فى رواية ابن سلام . و ينبغى أن يلاحظ ايضاً أن الشاعر ، يكون أفق ثقافته واسعاً، و أنه يكون دائم الاتصال بشعر الشعراء الذين سبقوه ، و يتأثر به ، يدل على ذلك لامية الفرزدق ، يقول فيها.[1]

و هب القصائد لى النوابغ اذا مضوا ... و أبو يزيد و ذوالقروح و جرول
والفحل علقمة الذى كانت له ... حلل الملوك ، كلامه لا ينحل
و أخو بنى قيس و هن قتلنه ... و مهلهل الشعراء ذاك الأول[2]
والاعشيان كلاهما و مرقش ... و أخو قضاعة قوله يتمثل[3]
و أخو بنى أسد عبيد اذ مضى ... و أبو داؤد قوله يتنحل
و ابنا أبى سلمى زهير و ابنه ... و ابن الفريعة حين جد المقول[4]
و الجعفرى و كان بشر قبله ... لى من قصائده الكتاب المجمل[5]
و لقد ورثت لال أوس منطقاً ... كالسم خالط جانبيه الحنظل[6]
(الأبيات)

و أما قولهم : انه كان يعمد الى الصنعة والتجويد فى الشعر و يجد فى تأليفه مشقة و عناء، فهذه الصفة لا يختص بأوس بن حجر فقط ، و انما كان الشعراء جميعهم يعمدون الى الصنعة والتجويد و مما يدل على ذلك أننا نجد فى تراجم بعض الشعراء القدماء و اخبارهم أسماء تصور مهارتهم و اجادتهم الفنية ، فعدى ابن زيد انما لقب مهلهلا لطيب شعره و رقته. و قد كان أحد ممن غنى العرب فى شعره . . . و كان طفيل الغنوى من أوصف الشعراء للخيل ، و كان أهل الجاهلية يسمونه المحبر لحسن

١- النقائض ١/٢٠٠-٢٠١ ، و ديوان الفرزدق ج ٢ ص ١٥٩

٢- (أخو بنى قيس) : طرفة بن العبد و (هن قتلنه) : يعنى القوافى—(النقائض ١/٢٠٠)

٣- (أخو قضاعة) أبو الطمحان القينى - (النقائض ١/٢٠٠)

٤- (ابن الفريعة) : حسان بن ثابت

٥- (الجعفرى): يعنى لبيد بن أبى ربيعة الجعفرى - (بشر) بن أبى خازم الأسدى

٦- (أوس) : أى أوس بن حجر (النقائض ١/١٠١)

شعره ، كما سمى المرقش ، و هو لقب غلب عليه ، لتحسينه شعره و تنميقه[١] و كان النمر بن تولب شاعراً جواداً و لقب بالكيس لحسن شعره[٢] و غلب على النابغة الذبيانى لقبه لنبوغه فى شعره.[٣] وكان علقمة يلقب بالفحل لجودة أشعاره.[٤] و كما كان الجاهليون يطلقون هذه الألقاب على هؤلاء الشعراء الكبار ، فقد كانوا يسمون لقصائد التى ذاعت واشتهرت بأسماء تصور اعجابهم بها ، و اجادة أصحابها فى نظمها من مثل : اليتيمة ، والمنصفة ، والسموط والحوليات ، والمنقحات والمحكمات والمقلدات.»[٥]

و يقول الدكتور ابراهيم عبدالرحمن فى موضع آخر من كتابه : قضايا الشعر فى النقد العربى) «و خلاصة ما نذهب اليه و نؤكده أن زهيراً و الحطيئة و غيرهما من شعراء الجاهلية لم يكونوا وحدهم فى ايثار هذا الاتجاه الفنى الذى كان يتخذ من «التجويد» اساسا فنياً لصناعة أشعارهم فقد نجد فى شعر امرىء القيس أنه كان يعنى فى اشعاره بتحقيق ظواهر فنية بعينها، من التشبيه والاستعارة و غيرهما من اشكال المجاز المختلفة عناية خلقت فى شعره بنية جمالية راقية ، و خرجت بأشعاره الى مستوى التعبير الرمزى الذى يعبر الشاعر من خلال صوره و معانيه عن مواقفه و قضايا بيئته.»[٦]

و أما القول بأن صوره مادية حسية ، فيقول الدكتور ابراهيم فى رده : و واضح أن «طه/حسين» و من تابعه من الدارسين قد أسرفوا فى تفسير ملاحظات القدماء عن زهير و أمثاله من شعراء هذه المرحلة من تاريخ الشعر الجاهلى ، ذلك أن هذه الخصائص العامة التى حاول نسبتها الى عدد يعينه من الشعراء الذين يكونون فيما يرى مدرسة شعرية ، يمكن التماسها فى شعر غيرهم من شعراء هذه الفترة ذاتها من الذين لم يدخلهم المؤلف فى اطار هذه المدرسة الشعرية. و قد أشرنا فى حديثنا عن

١- انظر شرح المفضليات لابن الأنبارى ص ٤١ ، ٤٨٥

٢- الشعر و الشعراء ١/٣٠٩ وروى الأصبهانى عن ابن سلام «. . . كان أبو عمرو بن العلاء يسميه الكيس لحسن شعره»—(الأغانى ٢٦/٤ . ٩٠)

٣- الشعر و الشعراء ١/١٥٧

٤- انظر بيت الفرزدق السابق فيه، وانظر (الأغانى ٢٤/٨٤٢٣)

٥- قضايا الشعر فى النقد العربى ص ١٣٠-١٣١

٦- انظر ص ٤٣/٤٨ و ص ٦٥-٧٢ من «قضايا الشعر فى النقد العربى»

امرىء القيس و تشبيهاته[1] الى تراكم التشبيهات ظاهرة غالبة على أشعاره و أشعار غيره من معاصريه ، وانتهينا الى القول بأن هذه الظاهرة الفنية : كثرة التشبيهات وماديتها و حسية الصور الشعرية ، قديمة قدم امرىء القيس. . .»[2]

و يقول : . . . ان هذه الصفة (مادية الصور و حسيتها) لا تصدق ، على عكس ما يرى طه حسين على شعر أوس بقدر ما تصدق على شعر غيره من الشعراء من أمثال : امرىء القيس والحارث بن حلزة ، و طرفة بن العبد ، ولبيد و زهير و غير هؤلاء. والتشبيهات المادية ، والصور الحسية هي الأخرى ، ظاهرة طبيعية في الشعر ، فلا يكاد يخلو نص جاهلي من هذا النوع من الصور و التشبيهات المادية والحسية.»[3]

و أما القول بأن أوساً قصد الى التكسب بالشعر فهو قول لا يقوم على دليل علمي. قد فصلت البحث عن هذا في رسالتي «أوس بن حجر—دراسة فنه الشعري.»

١- أنظر ص ٤٣-٤٨ و ص ٦٥-٧٢ من كتابه : قضايا الشعر في النقد العربي ، وانظر أيضا كتابه «الشعر الجاهلي» ص ٢٠١-٢١٨ ، والفن و مذاهبه في الشعر العربي ص ١٤-١٩

٢- قضايا الشعر في النقد العربي ص ١٤٥

٣- المرجع السابق ص ١٤٧